

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: 65]

❁ مُنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

إنزال المطر مَنَقَعٌ
للمتفكرين،
وتنبيهٌ للغافلين

لما انقضى الدليل على أَنَّ قلوبهم مُنْكَرَةٌ استكبارًا، وجحودًا وإنكارًا؛ شرع سبحانه في تقرير دلائل وحدانيته، ومظاهر قدرته، والتذكير بسايق نعمته؛ فبدأ بنعمة المطر التي هي أبين العبر، وهي ملاك الحياة، وهي في غاية الظهور لا يُخالف فيها مَنْ كان له قلبٌ أو ألقى السَّمْع وهو شهيد⁽¹⁾.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿يَسْمَعُونَ﴾: السَّمْعُ: الأذن، وكذلك: قُوَّةٌ في الأذن بها تدرك المسموعات، وكذلك: ما وُقِرَ في الأذن مِنْ شَيْءٍ تسمعه، ويُطْلَقُ السَّمْعُ أيضًا على مصدر سَمِعَ يَسْمَعُ، فهو سَامِعٌ⁽²⁾، والسَّمِيعُ: هو الموصوف بأَيِّ مَعْنَى من هذه المعاني⁽³⁾، والسَّمِيعُ من أسماء الله ﷻ: وهو الذي وَسِعَ سمعه كُلُّ شَيْءٍ بغير جارحة، فلا يعزُب عنه شَيْءٌ من المسموعات وإن خفي⁽⁴⁾، ومعناه المحوري: إيناس الشَّيْءِ بالأذن⁽⁵⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِي:

والله سبحانه أنزل بقدرته الخارقة ورحمته الواسعة مِنَ السَّحَابِ مطرًا فأَنْبَتَ به الأرض بعد يبوستها؛ إذ كانت ميتةً لا زرع

مَنْ أَحْيَا الْأَرْضَ
لِلوَاتِ، وَأَخْرَجَ
مِنْهَا النَّبَاتَ لَا
يُعْجِزُهُ إِحْيَاءُ
الْأَمْوَاتِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 404 / 3، والزازي، مفاتيح الغيب: 231 / 20، وأبو حيان، البحر المحیط: 6 / 553، والبقاعي، نظم الدرر: 191 / 11، والآلوسي، روح المعاني: 413 / 7.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزيدي، تاج العروس: (سمع).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزيدي، تاج العروس: (سمع).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزيدي، تاج العروس: (سمع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).

فيها ولا عشب، إنَّ في ذلك لدليلاً على قُدرة الله على البعث وعلى
الوحدانيَّة لقوم يسمعون هذا الكلام سماع تدبُّرٍ وإنصاف؛ فيطيعون
الله ويتَّقونه بما دَلَّهم عليه⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

بلادة عطف الآية على سابقتها:

أوثر وصل هذه الآية بسابقتها لما بينهما من شديد الصلة من
حيث المعنى الذي تؤدِّيهِ كلُّ منهما؛ إذ إنَّه لما كان ما تحيا به النفوس
من إرسال الرُّسل مبشِّرين ومنذرين رحمةً من الله بخلقه، وفي
إنزاله الكتاب حاكماً بين النَّاس رحمةً من الله، أتى ذكر ذلك في
الآيات السَّابقة؛ لما فيها من ذكر ما به إحياء النفوس، فذكر بعد
ذلك ما به إحياء الأرض - وهو المطر - بجامع الإحياء والرحمة
في كلِّ، ففي إرسال الرُّسل وإنزال الكتاب إحياء النفوس والقلوب
رحمةً بها، وفي إنزال المطر إحياء للأرض رحمةً من الله بخلقه،
فهذا الجامع حَسَّنَ الوصل بين الآيتين، "ولولا هذا لكان قوله تعالى:
﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ كالأجنبيِّ عمَّا قبله وبعده"⁽²⁾، "ويكفي
في ربط الآية بما قبلها تشارك الكتاب والمطر في الإحياء لكن في
ذاك إحياء القلوب، وفي هذا إحياء الأرض الجدوب، فتأمَّل"⁽³⁾.

في إنزال الكتاب
إحياء القلوب،
وفي إنزال المطر
إحياء الأرض
الجدوب

فائدة تكرار التذكير بنعمة إنزال الماء في السورة:

ذكر إنزال الماء فيما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: 10]
كان على سبيل الاستدلال به على وحدانيَّة الله، أمَّا هنا فعلى سبيل
الامتنان بهذه النعمة من الله على خَلقه، التي هي إحياء الأرض

في تكرار التذكير
بالمَن توجيئة
لأنظار القلوب
إلى النِّعم اللتان

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 269، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 27، وابن كثير، تفسير القرآن
العظيم: 4/ 498، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 231.

(2) الشهاب الخفاجي، حاشية على البيضاوي: 5/ 344، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 414.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 414.

بعد موتها بالماء النَّازل من السَّمَاء، وفي هذا الإحياء من النِّعَم ما لا يخفى، فِيهِ قِوَامٌ عَيْشِ الْإِنْسَان، والبهائم التي ينتفع الإنسان بها، وبهذا اختلف التَّوَجِيه بين الآيتين؛ لاختلاف الاعتبار والغرض الأوَّلِي الَّذِي ذُكِرَتْ لأجله كلتا الآيتين، فالأولى نِعْمَةٌ مَسْوَقةٌ مَسَاقِ الاستدلال، والثَّانية مَسْوَقةٌ مَسَاقِ الامتنان⁽¹⁾.

وإنَّما بدأ بنعمة المطر في سياق الامتنان عند قصِّ العِبَرِ المؤدِّيةِ إلى بيان أمر الرُّبُوبِيَّة؛ لأنَّ المطرَ أَبَيُّ العِبَرِ، وهو مِلَاكُ الحِياة، وهو في غاية الظُّهور، ولا يختلف فيه عاقل⁽²⁾.

غرض تقديم المُسْنَدِ إليه في جملة ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قَدَّمَ المُسْنَدَ إليه، وهو لفظ الجلالة ﴿وَاللَّهُ﴾ على المُسْنَدِ الفعلي ﴿أَنْزَلَ﴾ للاختصاص، أي أَنَّ اللَّهَ الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وليس لغيره من الأمر شيءٌ، هو - وحده لا غيره - أنزل من السَّمَاءِ ماءً فأَحْيَا به الْأَرْضَ بعد موتها، فدلَّ ذلك على انفراد سبْحانه بهذه النِّعْمَةِ، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: 101]؛ أي: لا يعلمهم غيرنا لإبطانهم الكفر⁽³⁾.

دلالة إظهار لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ﴾ إظهار اسم الجلالة دون الضَّمير، فلم يَقُلْ مثلاً: وهو الَّذِي أَنْزَلَ؛ لأنَّ الْعَلَمَ أَظْهَرَ وَأَوْضَحَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى تَحْقِيقِ الْإِنْفِرَادِ بِالْخَلْقِ وَالْإِنْعَامِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ شُرَكَائِهِمْ، كما هو مقتضى الظَّاهِر، فناسب هذا دلالة الآية على انفراد اللَّهِ بِالْخَلْقِ وَالْإِنْعَامِ، فكان الْأَلِيقُ اسْتِعْمَالُ الْعَلَمِ الظَّاهِرِ، دُونَ الْإِضْمَارِ، وَلأنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا مُقَرَّرِينَ بِأَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ فَاعِلُ

ليس لَمَنْ يُعْبَدُ
من دون الله
مُثْقَالُ ذَرَّةٍ، ولا
يَقْدِرُونَ عَلَى
إِنْزَالِ قَطْرَةٍ

ناسب التَّعْبِيرُ
بِالظَّاهِرِ السَّاطِعِ
إِلَى
الْبَرْهَانِ الْقَاطِعِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 197/14.

(2) ابن عطية، للحرر الوجيز: 404/3، وأبو حيان، البحر للحيط: 553/6.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 191/11، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 197/14، 198، والصعيدى، بغية

الإيضاح: 113/1.

هذه الأشياء، فكان في الإظهار تنبيهٌ لهم على الانفراد والوحدانية المقصود بالآية⁽¹⁾.

دلالة (مِنْ) في قوله ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾:

معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ الابتداء، كما نقول: خرجت مِنْ الكوفة إلى بغداد، أي ابتداء الخروج مِنْ الكوفة، وانتهاءه في بغداد، يكون معنى الآية على ذلك: أنزل ماءً ابتداءً نزوله من السَّمَاء⁽²⁾، وفي هذا ما فيه من لفت الأنظار إلى مكان نزول الماء الذي به قوام الحياة، وتوجيه الأبصار إلى السَّمَاء وما فيها من آياتٍ باهرةٍ لم تخلق معبوداتهم الباطلة شيئاً منها وما ينبغي لهم وما يستطيعون⁽³⁾، وفيه أيضاً تذكير لهم بأن قوام حياتهم ليس مخزوناً في الأرض يخرجونه وقت ما يشاؤون، بل هو مُنزلٌ مِنَ السَّمَاءِ، ومُنزله قادرٌ على منعه، فهذا ترهيبٌ في ثوب ترغيب، وتحذيرٌ في ثوب تذكير.

نوع (اللَّام) ودلالاتها في ﴿السَّمَاءِ﴾:

السَّمَاءُ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ بمعنى السَّحَاب، فتكون (اللَّام) في السَّمَاء للعهد الخارجي، فتكون السَّمَاء بمعنى السَّحَاب، فتدلُّ على أنَّ المقصود هو السَّمَاء المعينة المعلومة لدنيا⁽³⁾، وفي هذا نوع تعريضٍ بالمشركين الذين يرون السَّمَاء وهم عن آياتها معرضون، فالسَّمَاء لهم معروفة، وآياتها مشاهدة، فالله سبحانه يمتنُّ عليهم بما يعرفون ويلمسون، لا بما يجهلون، ومع ذلك يستكبرون، ويولِّون معرضين!

غَرَضُ تَكْرِيرِ ﴿مَاءً﴾:

جاءت كلمة ﴿مَاءً﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾

في لفت الأنظار
إلى السَّمَاء
ترغيبٌ في ثوب
ترهيب، وتحذيرٌ
في ثوب تذكير

السَّمَاء
معلومة،
وآياتها مشاهدةٌ
للعالمين، وما
زال الكفار
للصانع منكربين

التَّنْكِيرُ للتَّكْثِيرِ،
وفي ذلك تبصيرٌ
بالنَّعَمِ وتذكيرٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 198 / 14.

(2) الرماني، منازل الحروف، ص: 49، والرازي، الجنى الداني، ص: 308.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 122 / 10، والصعدي، بغية الإيضاح: 90 / 1.

لأجل التَّكثِير؛ أي: أنزل ماءً كثيرًا، سواء كثرة كميَّة، أو كثرة أنواع، فمن هذا الماء: مطرٌ، وتلجٌ، وبرَدٌ، أو كلاهما معًا، بأن يكون الماء من هذه الأنواع الكثيرة، وبكميَّة كثيرة⁽¹⁾، وفي هذا التَّكثِير تعديدٌ للنَّعم، بل لمتعلقات النَّعمة الواحدة؛ للفت الأنظار إليها، وإلى مَنْ أنعم بها.

دلالة الفاء في قوله ﴿فَأَحْيَا﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فاء التَّعْقِيب، وتعقيب كلِّ شيءٍ بحسبِهِ، فلا يتعارض ذلك مع المهلة التي بين إنزال الماء من السَّماء، وإحياء الأرض بعد موتها، مثال ذلك قولنا: تزوَّج، فولد له الولد⁽²⁾.

وقد أفاد هذا التَّعْقِيب أمرين:

أحدهما: ترتيب إنبات النَّبات على إنزال الماء من السَّماء للفت أنظار المعرضين إليها، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾⁽³⁾ [الذَّارِيَات: 22].

والآخر: أنَّ المهلة الزَّمنيَّة بين إنزال المطر وإنبات النَّبات ليست طويلة، فالله سبحانه لم يدع عباده بدون رِزْقٍ، بل أغدق عليهم رِزقه، وأسبغ عليهم نِعمه.

دلالة حرف الجرِّ في ﴿بِهِ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ باء السَّبَبِيَّة، أي أنَّ الله تعالى هو الذي يُحيي الأرض بعد موتها بسبب الماء، وبواسطة الماء⁽³⁾، وفيه تنبيهٌ على أنَّ لكلِّ شيءٍ سببًا، ولكلِّ سببٍ مسببًا إلى مسببٍ لا مسببَ له، بل هو واجب الوجود لذاته، وليس ذلك إلَّا لله ﷻ.

لم يترك الله
عباده بلا رِزْقٍ،
ولم يفرغ
دثارهم من
النَّعم

جعل الله لكلِّ
موجودٍ سببًا،
ومن تتبَّع
الأسباب هُدي
إلى مُسبِّبها
الأعلى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/11، والراعي، علوم البلاغة، ص: 127.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/124، والآلوسي، روح اللعاني: 7/413.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/231، والرازي، الجنى الداني، ص: 39، والآلوسي، روح اللعاني:

غرض تقديم شبه الجملة ﴿بِهِ﴾:

تقدّم شبه الجملة ﴿بِهِ﴾ على مُتعلّق الفعل ﴿فَأَحْيَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ لغرض الاهتمام بشأن المُقدّم أو الإشعار بالاهتمام به⁽¹⁾، وعلة ذلك التّنبية على أنّ إحياء الأرض بالنبات إنّما يحصل بواسطة الماء الذي أنزله الله من السّماء، فليس لمعبوداتهم الباطلة شيء من ذلك ألبتّة، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه، فإذا كان الله تعالى هو الذي أطعمهم وسقاهم، فكيف يعبدون غيره؟

نوع (اللام) ودلالاتها في ﴿الْأَرْضِ﴾:

معنى (اللام) في قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ [فاطر: 9] هو بيان الجنس، فلم يُقُلْ مثلاً: فأحييناه؛ أي: البلد الميت به تعليقاً للإحياء بالجنس المعلوم عند كلّ أحدٍ، وهو الأرض⁽²⁾، فهي الأرض التي وطّئها أقدامهم، وهي الأرض التي افترشوها، وهي الأرض التي حرثوها، لكنّ الذي أحيّاها هو الله واهب الحياة.

سرّ تقييد الإحياء بالظرف: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾:

قوله تعالى: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ظرفٌ مُتعلّقٌ بمحذوف حال⁽³⁾، وهذا القيد فيه إظهارٌ للمنة، وإسباغٌ للنعمة، فتلك الأرض التي كانت مواتاً لا يقدر أحدٌ على إحيائها بالنبات إلا الله ﷻ ومَن قَدَرَ على إحياء الأرض فهو على إحياء البَشَرِ أقدرُ.

غرض الاستعارة في إحياء الأرض وإماتتها:

المُرَاد بإحياء الأرض في قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ إنباتُ الزّرع والشّجر والنّور والثّمر بعد أن كان لا يُثمر، وينفع بعد أن كان لا ينفع⁽⁴⁾، فالإحياء والموت استعارةٌ للإنبات

الله سبحانه
يُطْعِمُ وَلَا
يُطْعَمُ، فَكَيْفَ
يُعْبَدُ غَيْرُهُ
مِمَّنْ يُطْعَمُ وَلَا
يُطْعِمُ؟

الذي أحيا
الأرض بالمياه
هو الله واهب
الحياة

من قَدَرَ على
إحياء الأرض
بأنواع الثّمر فهو
على إحياء البَشَرِ
أقدر

الله سبحانه
واهب الحياة،
ولا يقدر على
ذلك أحدٌ سواه

(1) اللراغي، علوم البلاغة، ص: 107.

(2) الألوسي، روح المعاني: 11/ 345.

(3) درويش، إعراب القرآن: 5/ 330.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 231.

واليابس، وليس المراد إعادة اليابس بل إنبات مثله⁽¹⁾، وسمَّى الله تعالى الأرض من غير نباتٍ بالميتة تشبيهاً للأرض القفر الجرداء بالميتة؛ لأنه ليس على ظهرها حياةٌ، وجعل الماء سبباً لإحيائها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: 30]⁽²⁾، وأشار سبحانه بإحياء الأرض بعد موتها إلى إحياء القلوب بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: 122] فكما تصير الأرض خَصِرَةً بالنَّباتِ نَصِرَةً بعد همودها، كذلك القلب يحيا بالقرآن بعد أن كان مَيِّتًا بالجهل⁽³⁾.

سِرُّ إسناد الموت إلى الأرض لا إلى الله:

الله جليل، ولا
يُنسب له إلا كلُّ
جميلٍ

للأرض حالان: حالُ الجذب واليبوسة، وهي التي وصفتها الآية الكريمة بالموت، وحالة الاخضرار والاهتزاز بالنَّبات، وهي التي وصفتها الآية الكريمة بالحياة، ولا شكَّ أنَّ حالة الإنبات أحبُّ إلى المخاطبين وأنفع، ولما كانت الآية مسوقةً مساقَ الامتنان ناسب أن يُسند فعل الإحياء لله تعالى، وأن يُسند الموتُ إلى الأرض، وكذا كلُّ فعلٍ طيِّبٍ يُنسب إلى الله تعالى ما لم يكن كذلك فلا يُنسب له تأدُّباً، وذلك نحو قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: 10].

بلاغةُ المُقابلة في الآية الكريمة:

مَنْ مَلِكُ الْأَرْضِ
وَالسَّمَاءِ،
وَالْإِمَاتَةِ
وَالْإِحْيَاءِ، هُوَ
وَحْدَهُ الْمُسْتَحَقُّ
لِلْعِبَادَةِ

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ مُقابلة بين السماء والأرض، والإحياء والإماتة، وهذه المُقابلة إنَّما اكتسبت بلاغتها وجمالها من المجيء بها في سياق إظهار القدرة، والامتنان بالنعمة، فله سبحانه ما في السماوات وما في

(1) الألويسي، روح المعاني: 7/ 413.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 209.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 553.

الأرض، وهو مالِكهما، ولله سبحانه الإحياء والإماتة، فمن ملك هؤلاء هو المستحقُّ للعبادة.

موقع قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ جملةٌ مُستأنفة استئنافاً بيانياً لتنزيلها منزلة سؤالٍ مقدَّر، فكأنَّه قيل: هل فيما سبق ذكره آية؟ أو: في ذلك آيةٌ لمن؟ فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، وهذا مما يحسِّن الإتيان بمؤكدات⁽¹⁾.

دلالة توالي المؤكِّدات في فاصلة الآية:

في هذه الجملة الكريمة مجموعةٌ من المؤكِّدات هي:

الحرف النَّاسِخُ ﴿إِنَّ﴾، وتقديم شبه الجملة ﴿فِي ذَلِكَ﴾، واللام في قوله: ﴿لَآيَةً﴾، ووقوع الجملة موقع الاستئناف البياني، وهذه المؤكِّدات كأنها قوارع توقظ القلوب من غفلتها، وتضع الأيدي على الحقيقة الدامغة أنَّ في هذه الأمور المتقدِّم ذكرها آيةٌ دامغةٌ وبراهينٌ ساطعةٌ لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيد، وقد حُسِّن توالي هذه المؤكِّدات لما كان الكلام موجَّهاً إلى منكرين، لإقامة الحُجَّة عليهم.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿فِي ذَلِكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ قُدِّمَ المسند، وهو شبه الجملة، على المسند إليه، وهو قوله تعالى: ﴿لَآيَةً﴾ لغرض التَّنبيه على أنَّ المقدِّم هو مناط الاستعظام ولفت النظر إليه وفيها كذلك تخصيصٌ للمتقدِّم، فكأنَّه قيل: إنَّ الآية التي يتَّعظ بها الذين يسمعون سَمِع اعتباراً إنّما هي في إحياء الأرض بمياه الأمطار، فكأنَّه نَزَلَ هذه الآية المفردة منزلة جميع الآيات، ليكون مَنْ كفر بها أو أعرض عنها

تنفع الآيات مَنْ
أصغى إليها
سمع قلبه،
وتدبرها بلبّه

قوارِع السَّمْع
مطارِق القَلْب،
توقظُه من
شباته، وتنزيل
عنه غشاواته

في إحياء الأرض
بماء الأمطار
عِظَةٌ لِلَّذِينَ
يسمعون سَمِع
اعتبار

(1) الصعدي، بغية الإيضاح: 2/ 295.

كَمَنْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الْآيَاتِ، وَإِنَّمَا خُصِّصَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِهَذَا لَوْضُوحِهَا وَجَلَّالِهَا فَلَا يَكَادُ يُنْكِرُهَا أَحَدٌ.

غرض التعبير باسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾:

أَوْثَرَ التَّعْبِيرُ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ دُونَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ لِيَكُونَ مَحَلُّ الْآيَةِ جَمِيعَ الْمَذْكُورَاتِ مِنْ إِنْزَالِ الْمَطَرِ وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بِهِ، وَمَوْتِهَا مِنْ قَبْلِ الْإِحْيَاءِ⁽¹⁾، وَلِلتَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ فِي سِيَاقِ الْمَدْحِ دَلِيلٌ عَلَى التَّعْظِيمِ، وَأَمَّا عَنْ نَكْتَةِ مَجِيئِهِ لِلْبَعِيدِ، فَلَتَّعْظِيمِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَدْ بَلَغَ غَايَةَ فِي الْعُلُوِّ وَالتَّعْظِيمِ سَامِقَةً⁽²⁾.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَآيَةً﴾:

اللّام فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَآيَةً﴾ هِيَ اللَّامُ الْمَرْحَلَةُ الْمَفِيدَةُ لِلتَّوَكُّيدِ⁽³⁾، وَإِنَّمَا حَسُنَ هَذَا التَّوَكُّيدُ لَكُنْ الْكَلَامُ مُوجَّهًا لِمُخَاطَبِينَ مُنْكَرِينَ، فَأَقِيمَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِهِ.

غرض التنكير في قوله: ﴿لَآيَةً﴾:

مِنْ أَغْرَاضِ التَّنْكِيرِ: التَّعْظِيمُ⁽⁴⁾، وَهُوَ الْمَقْصُودُ فِي هَذَا السِّيَاقِ، أَيْ: إِنَّ فِي إِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ، وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بِهِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا آيَةً عَظِيمَةً وَجَلِيلَةً، وَبَغْرَسِ الْإِيمَانِ فِي الْقُلُوبِ كَفِيلَةً، وَدَلَالَةً وَاضِحَةً تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِنَا وَقَدَرَتِنَا وَحُكْمَتِنَا⁽⁵⁾.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَقَوْمٍ﴾:

اللّام فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَوْمٍ﴾ تَفِيدُ الْإِخْتِصَاصَ⁽⁶⁾، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِالسَّمَاعِ الَّذِي هُوَ سَمَاعٌ اعْتِبَارٍ وَاتِّعَاضٍ، وَهَذَا هُوَ نَوْعُ السَّمَاعِ

آيات الله
عظيمة وآلؤه
جسيمة، ولا
يُعرض عنها
إلا أصحاب
النفوس
الذميمة

تكفي المؤمنين
الإشارة،
ويحتاج
الكافرون إلى
توكيد العبارة
وتكرير النذارة

إحياء الأرض
بالماء من بعد
موتها آية
جليلة، وبغرس
الإيمان في
القلوب كفيلة

في آيات الكون
عبر للمؤمنين،
وعظات
للمتدبرين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14 / 198.

(2) الألوسي، روح المعاني: 7 / 413.

(3) محمود صافي، الجدول: 7 / 346.

(4) للراعي، علوم البلاغة، ص: 127.

(5) طنطاوي، الوسيط: 8 / 182.

(6) للراعي، الجني الداني، ص: 96.

المُؤدِّي إلى المطلوب؛ فلذلك حُصِّص في الآية دون غيره، وإنَّما خصَّ كونها آيةً لهم؛ لأنَّ غيرهم لا ينتفعون بها، ويحتمل أن يكون المعنى: لقوم يسمعون من الغير، فكيف الذين يبصرونه؛ أي: ذلك آيةٌ للأعمى، فكيف البصير؟⁽¹⁾.

غرض التنكير في قوله: ﴿لِقَوْمٍ﴾:

قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ وليس (للذين يسمعون) أو (للسامعين)؛ لأنَّ إجراء الوصف على لفظ ﴿لِقَوْمٍ﴾ يومئ إلى أنَّ ذلك الوصف سجيَّةٌ فيهم، ومن مكملات قوميتهم، فإنَّ للقبائل والأمم خصائص تميِّزها وتشتهر بها، فالمعنى: أنَّ في ذلك آيات للذين سجيَّتهم السَّمع سمع الاعتبار والاتعاظ، وهو تعريضُ بأنَّ الذين لم ينتفعوا بآيات ذلك ليست أسماعهم براسخة ولا هي ملكات لهم⁽²⁾ وجيء به نكرةً لإفادة العموم، فإنَّ أيَّ قوم اتَّصفوا بهذه الصِّفة سيصلون لهذه النتيجة، وهي الإقرار والاعتبار.

بلادة الكناية في ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ تعبيرٌ عن التدبُّر بالسَّمع لأنَّ السَّمع من أهمِّ وسائل التدبُّر، فمَن لم يسمع بقلبه فكأنَّه أصمُّ لم يسمع، والمُرَاد بالسَّمع: القبول كما في (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)؛ أي: لقوم يتأملون فيها، ويعقلون وجه دلالتها، ويقبلون مدلولها⁽³⁾.

فالسَّمع هنا مستعملٌ في لازم معناه على سبيل الكناية، وهو سماع التدبُّر والإنصاف لما تدبَّروا به، وهو تعريضٌ بالمشرِّكين الذين لم يفهموا دلالة ذلك على الوحدانية، ولذلك اختير وصف السَّمع هنا، والمُرَاد منه الإنصاف والامتثال؛ لأنَّ دلالة المطر وحياة الأرض

مَن كان سميع القلب، العقل مطبوعاً بذلك هُدي إلى سواء السبيل

مَن لم يسمع بقلبه فهو الأصمُّ، وما يغني سماع الأذن عن رفع الدَّم

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6 / 59.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2 / 89.

(3) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6 / 59.

به معروفة مشهورة، ودلالة ذلك على وحدانية الله تعالى ظاهرة لا يصدُّ عنها إلا المكابرة⁽¹⁾.

دلالة التعبير ﴿يَسْمَعُونَ﴾ مادةً وصيغةً:

كان ظاهر السياق أن تكون هذه لقوم (يَنْظُرُونَ)، ولكنه عدل إلى السَّماع فقال الله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ للإشارة إلى أن النظر لا يبصر المعاني إذا لم يكن قد سمع الحق وأذن له، وكذلك العقل لا يفكر إذا لم تكن هداية من السماء له، فلا يعتبر بنعم الله تعالى إلا من سمع الحق وآمن به وأذن له، وإلا فهي غاشية لا يبصر ولا يدرك، إن هو إلا كالأنعام أو أضل سبيلاً⁽²⁾.

وعُبر بالمضارع ﴿يَسْمَعُونَ﴾ للدلالة على أن العظة إنما تحصل لمن أدمن التدبر، وراض نفسه لقبول كل آية من آيات الحق، فمهما رأى من عجيب صنع الله، أو سمع من آيات الله تعالى آمن وقبل بلا تردد، ومن هنا تظهر بلاغة استخدام المضارع الدال على الاستمرار والتجدد.

لا يحتاج الحق
دليلاً عليه
لظهوره، بل
يحتاج إلى
إصغاء سمع
القلب لتلقي
نوره

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14 / 198.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8 / 209.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446 هـ - 2024 م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 4-23-768-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26: المجلد السادس والعشرون، سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 4-23-768-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»